جدل العلاقة بين منطق القطيعة ومنطق التركيب في فكر "غاستون باشلار"

بقلم: د. عبد الحق بولخراص
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على فكرة جدل العلاقة بين القطيعة والتركيب في فكر غاستون باشلار، أو ما يسمى بالإبستمولوجية التركيبية أو بالاحتوائية أو بالنسبوية، حيث توصل باشلار إلى مبتغاه العلمي والموضوعي في لم شمل القطيعة بمعناها المطلق والكامل، والقطيعة النسبية بمعناها المؤقت والتركيبي والاحتوائي، وذلك برابط نفساني ذاتي.

تمهيد:

نظرا للقراءات القديمة للفكر الباشلاري الضيقة والدوغماتية من جهة أخرى لدى القراء سواء على مستوى ذهنية عقول الطور الثانوي أم على مستوى العقول الأكاديمية، ارتأينا تصحيح بعض المفاهيم الباشلارية التي تتطلب منا الانفتاح أكثر فأكثر وليس منطق الانغلاق وعدم أقلمة المفاهيم حسب تغيرات العصر، ومن المفاهيم الفلسفية الباشلارية التي تداولتها الألسن الفلسفية والعلمية نجد القطيعة الإبستمولوجية ومفهوم التركيب المعرفي الباشلاري، فهناك من يقر بأنه تحدث عن القطيعة في ظل الانفصال المعرفي بين المعارف القديمة والمعارف الجديدة، والمعروف في فضاء الفلسفة والعلم أن باشلار اشتهر بفكرة "القطيعة الإبستمولوجية".

ولكن بحكم تطور فكر باشلار، تغيرت فكرة القطيعة الإبستمولوجية وخاصة وأن باشلار تحدث عن مفهوم التركيب الموسع والمتفتح هذا ما جعلنا نعيد قراءة فكر باشلار قراءة أكثر اتساعا وانفتاحا، ونظرا لبعض العقول التي ترى في الدراسات الباشلارية قد أنهيت على آخرها ولا يوجد الجديد في فلسفة العلم الباشلارية، في ظل اللافهم للفكر الباشلاري نريد أن نتساءل وبقوة التساؤل: هل القطيعة قطيعتان أم قطيعة واحدة؟ وإذا كانت هناك قطيعتان بالمعنى المزدوج، فهل هذا معناه توصل إلى منطق التركيب المعرفي؟ أم ماذا؟ وهل القطيعة بين العلوم معناه اللاتركيب أم ماذا؟ وهل باشلار جمع بين منطق القطيعة والتركيب في منظومة العلوم بأسرها؟

أولا- المعنى المطلق للقطيعة الإبستمولوجية بالمعنى الباشلاري:

في قراءتنا المعمّقة لباشلار في كتبه الموسوعية أدركنا أن القطيعة مستويات وليس مستوى واحد، ففي البداية نتحدث عن القطيعة الإبستمولوجية بالمعنى المطلق والضيق، أي القطيعة الكلية والكاملة بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية، فلقد أقر باشلار بضرورة الانفصال التام بينهما، وخاصة وأن باشلار من دعاة الموقف الانفصالي في تاريخ العلوم ابستمولوجيتها، وفي ظل كتاب باشلار المعنون: "تكوين العقل العلمي" يقر على مدى الفصل التام بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية وهنا يقول: "... وعلى غرار الصراع مع الخطأ، السلب

والجدلية، الانفصال، يتضح لنا عمومية التصور الثوري، ويغدو التقدم العلمي مرهونا بتصحيح أفكار ذاتية، فروح العلم يتمظهر في تصحيح المعرفة وتوسيع نطاقها، وهذا ما يعرف (منطق التصحيح الذاتي)"[1]، فبغية الوصول إلى الموضوعية العلمية حسب باشلار وجب اتخاذ القطيعة العلمية مع الأفكار الذاتية والعامية، هذا حتى يتقدم العلم أكثر فأكثر، وفي إطار النظرية الانفصالية في تطور العلم حسب غاستون باشلار يقول: "العلم لا يخرج من الجهل كما يخرج النور من الظلام، لأن الجهل ليس بنية، بل يخرج من التصحيحات المستثمرة للبناء المعرفي السابق، حتى أن بنية العلم وإدراك أخطائه، والحقيقة العلمية هو تصحيح الوهم الأول المشترك"[2].

ففي ظل هذا الخطاب الباشلاري ندرك أن القطيعة بين المعرفة القديمة والمعرفة الجديدة، هي قطيعة كلية وليست مؤقتة، أي أن العلم معروف بثورة تصحيح دائم بهدف الوصول إلى معرفة علمية دقيقة بعيدة عن الأوهام العامية، وهنا أيضا ندرك تمام الإدراك مدى لغة النقد والتمحيص للأفكار السابقة وجعلها تتماشى والطرح الموضوعي اللاذاتي. وإذا تحدثنا عن القطيعة الإبستمولوجية فإننا نستحضر باشلار في تطور العلم، فالقطيعة المعرفية تعني ما تعنيه أن التقدم العلمي مبني على أساس قطع الصلة بالماضي، وهو أيضا استمرار لأساليب الإضاءة الماضية التي تقوم على الاشتعال والاحتراق، بل القطيعة لكل تلك الأساليب، والجدة العلمية هي ثورة التقدم والانفعال عن ماضي العلم والإضافة الحقيقية الحرة[3].

[1]- غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي، ترجمة: أحمد خليل أحمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، سنة 1982، ص 11.

[2]- غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، ترجمة: عادل العوا، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، سنة 1969، ص 99.

[3]- يمنى الطريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين - الأصول - الحصاد - الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة 2000، ص 392.

وهنا يؤكد باشلار على أنه بإمكان التحليل النفسي للمعرفة العلمية أن يسمح للشخص بالتحرر من الأفكار المسبقة لمعتقداته السابقة[1]، فمن خلال النصوص الباشلارية نقر إقرارا قاطعا على مدى مطلقية وكلية القطيعة الإبستمولوجية، فهذا على المستوى الأول لطبيعة القطيعة بالمعنى الضيق في إعلانه بالطرح الانفصالي بين المعرفة القديمة والمعرفة الجديدة، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في ظل القطيعة الإبستمولوجية الباشلارية: هل القطيعة لها معنى واحد أم هناك معان أخرى، أم فما هي يا ترى؟

ثانيا- المعنى النسبي للقطيعة الإبستمولوجية الباشلارية وصولا إلى منطق التركيب:

الكثير من الدارسين والباحثين والطلبة في الجامعات والمعاهد من يعتقد أن القطيعة على مستوى واحد، أي هي القطيعة الكاملة والنهائية بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية، مع أن البحث المعمق للكتب الباشلارية يدرك المعنى الآخر للقطيعة بمعنى آخر مختلف عن القطيعة بالمعنى المطلق، والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو المعنى الذي قدمه باشلار في طبيعة القطيعة؟ أي ما هي مستويات القطيعة الإبستمولوجية بالمعنى الباشلاري؟ وكيف وصل باشلار إلى تحقيق مشروع التركيب المعرفي في الفكر العلمي المعاصر؟ كل هذه التساؤلات سنبحث عنها بلسان باشلار في نصوصه المعمقة التي توحي بالمعنى الآخر للقطيعة الإبستمولوجية بالمعنى الجزئي والنسبي والاحتمالي، في البداية على مستوى الفكر العلمي، فالأمر مختلف عن القطيعة بالمستوى الضيق، حيث القطيعة بالمعنى الواسع قطيعة احتواء وشمول وتركيب بين العلم القديم والعلم الجديد، بدءا من منظومة العلوم الصورية بما هي رياضية ومنطقية، وهنا توصل باشلار إلى فكرة التركيب بين الهندسة الإقليدية والهندسة اللااقليدية، أي أن هناك تركيبا بين الفكر الهندسي الإقليدي والفكر الهندسي اللااقليدي دون إقصاء طرف على طرف آخر.

[1]- جان فرنسوا دوريتي: فلسفات عصرنا (تياراتها، مذاهبها، أعلامها وقضاياها)، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، سنة 1990، ص 307.

وكما يضيف الدكتور"ساهل بوعزة" من خلال كتابه المسمى: "علم الهندسة" في إشادة ما توصل إليه باشلار في تحقيق مايسمى القطيعة النسبية أوالجزئية محققا ما يسمى بالتركيب بين الهندسة الإقليدية والهندسات اللااقليدية وهنا يرى "ساهل بوعزة" أن تعدد الهندسات يشكل ثورة كبيرة في علم الهندسة ثورة المفاهيم الجديدة على المفاهيم القديمة، ثورة القيم الرياضية الجديدة على القيم الرياضية القديمة هذه الرياضيات المعاصرة التي جاءت نتيجة أزمة الأسس الرياضية وصلت إلى حد القطيعة الإبستمولوجية بين التصورين: التصور الإقليدي للمكان من جهة وتصور ريمان ولوباشفسكي للمكان من جهة أخرى، قطيعة احتواء.

فأصبحت الهندسة الإقليدية جزءا من الهندسات اللااقليدية، فقبل الهندسات اللااقليدية كان الفكر العلمي أمام نسق واحد، ومع مصادرات ريمان ولوباشفسكي أصبح العقل البشري أمام ثلاثة أنساق، أمام ثلاثة أمكنة، وهو انتقال من فكر على فكر آخر أوسع واشمل[1]. ومن جهة أخرى نجد المعنى النسبي للقطيعة الإبستمولوجية تركيبا بين العلم القديم والعلم الجديد فيما يخص منظومة العلوم الصورية وبالأخص جدل التركيب بين المنطق القديم والمنطق الجديد وفي هذا الصدد يقول باشلار في كتابه المسمى: "فلسفة الرفض" أن طبيعة البرهان مبني على تكافل المنطق والاختبار، حين بين أن مبدأ الهوية هو أساس المنطق الأرسطوطاليسي، بات من الآن فصاعدا من الهوامل، لأن بعض المواضيع العلمية يمكنها أن تكون ذات خصائص تتحقق من خلال أنماط اختباريه متعاكسة، وفي ظل هذا الاختلاف القائم في مفهوم الهوية بين أرسطو وغير أرسطيين يضرب ريزر لنا مثلا لكي يقرب المعنى الأكثر من خلال ما يلي:

الكهربون (الكهروب) هو جزيء الكهربون هو ظاهرة تموجية لا شك أن هذين التعريفين المعبر عنهما على هذا النحو، وشرط أن تعطى لهذه العبارات تماما معناها العلمي الدقيق، إنما هما تعريفان يستبعد أحدهما عن الآخر، إنهما يتنافيان لأن لهما الفاعل عينه والمحمولات التي تتناقض تماما مثلما يتناقض العظم واللحم والفقاريات واللافقاريات، لكنه من الواقع أن

[1]- ساهل بوعزة: علم الهندسة - بين العلماء والفلاسفة إلى ما بعد الأزمة - دار القرويين-، الدار البيضاء، ط1، سنة 2002، ص ص (35 - 37).

الشكل المجوهر جدا، الواقعي إلى أبعد الحدود، وهو الذي ينتج التناقض، فالفكر الواقعي يضع الفاعل قبل المحمولات في حين أن الاختبار في الميكروفيزياء ينطلق من المحمولات البعيدة، أي فقط على التنسيق بين شتى تجليات المحمول الواحد[1].

وحتى نحيط بالمعنى النسبي للقطيعة الإبستمولوجية بالمعنى التركيبي المفتوح الباشلاري وجب أن نؤكد خطابنا هذا بنص باشلاري مؤداه: "إن قلقا يرينا إذن على الفيزياء الرياضية وعلى الهندسة أنهم يخشون دائما أن تنضم موضوعة جديدة بصورة مفاجئة إلى العلم فتخلق فيه الازدواج، وأن الاحتفاظ بنوع من الشك الخفي المفتوح على ماضي المعرفة البحتة، وهو أيضا موقف يجاوز ويمدد ويضخم الحيطة (الديكارتية)، وهذه الحيطة تستحق أن تسمى (اللاديكارتية) بنفس معنى أن (اللاديكارتية) هي دائما (ديكارتية) متممة"[2].

وهذا ما يسمى حقيقة القطيعة النسبية الاحتوائية بين الفكر الديكارتي والفكر اللاديكارتي، حيث أن اللاديكارتية في جديدها دوما هي تكملة وإضافة وإثراء وإغناء للأفكار الديكارتية القديمة وليس حذفا ونفيا مطلقا لما سبق من الأفكار وحتى نؤكد مدى نسبية واحتوائية القطيعة الإبستمولوجية الباشلارية وجب أن نعمق النظر الفلسفي في جدل تركيب منظومة العلوم الفيزيائية وبالأخص نركز على مدى القطيعة النسبية بين دور العقل والتجربة في بناء المعرفة وتطويرها قدما نحو الأمام بالفهم الباشلاري والذي يعرف باسم "العقلانية التطبيقية"، فهذا منتهى الفهم التركيبي الاحتوائي بين منطق العقل ومنطق التجربة في بناء وتطوير المعرفة الإنسانية وفي هذا يقول باشلار: "إن التجربة دون قوانين واضحة ودون قوانين متناسقة ودون قوانين استنتاجية لا يمكن افتكارها ولا تدريسها، وأن عقلانية دون أدلة حسية، لا يمكنها أن تقنعنا اقتناعا تاما"[3].

[1]- غ. باشلار: فلسفة الرفض - مبحث فلسفي في العقل العلمي الجديد - ترجمة: أحمد خليل أحمد، دار الحداثة، ط1، سنة 1985، ص ص (125 - 126).

[2]- غ. باشلار: الفكر العلمي الجديد، مرجع سابق، ص 162.

[3]- غ. باشلار: فلسفة الرفض، مرجع سابق، ص 08.

فباشلار يبين أن التجريبية لوحدها لا تساوي شيئا، وأن العقلانية ليس لها قيمة معرفية دون وجود التجربة، فقيمة بعضهما البعض هي أساس تطور العلم، وهنا نتلمس مدى القطيعة النسبية أو الاحتوائية بمعنى التركيب المعرفي في الفكر الفيزيائي في طبيعة المنهج العلمي المتبع في الوصول إلى حقيقة العلم، فحسب باشلار الحقيقة ليس لها حدود، بل مفتوحة على مصراعيها ما دامت الأزمات تتوالد في ميدان العلم، باعتبار أن العلم مرتبط بتطور وسائلنا ومناهجنا المعرفية.

ثالثا- مفهوم القطيعة والتركيب بمنطق الاختلاف والتشابه بالمنظور الباشلاري فهما سيكولوجيا:

فمن خلال عرضنا لمفهوم القطيعة بالمعنى المطلق والقطيعة بالمعنى الجزئي أو النسبي أو ما يسمى بالتركيب المعرفي في فهم الإبستمولوجيا الباشلارية تبين لنا أن هناك أوجه الاختلاف والتمايز بين مفهوم القطيعة الكاملة والقطيعة النسبية بمعنى التركيب، حيث تلمسنا مدى الفرق الواضح للعيان في إقرار باشلار أن حقيقة القطيعة المطلقة خاصة بالفصل بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية وهذه نصوص باشلارية كثيرة توحي بمنطق هذا الفرق الشاسع بينهما، وفي ظل هذا الاختلاف نجد باشلار يقول: "على الفكر العلمي أن يكون موضوعيا، وأن يكون عاما بقدر ما يستطيع ذلك وحين يتيح له الواقع ذلك"[1]. والمقصود بما هو عام ليس العام بالمعنى الذاتي الشائع، إنما المقصود بالعام ما هو تعميم علمي دقيق، بحيث الموضوعية تتأسس بالفصل التام بين ما هو عامي وما هو علمي، فهناك فرق كبير وشاسع بين القطيعة المطلقة والقطيعة النسبية بمعنى التركيب، حيث يبين أن تاريخ المعرفة يمتاز بالقطيعة، لا تعرف التوقف مثلما هناك تحول في حياة الفرد، إنها طفرة وثورة، إن تاريخ المعرفة والعلم يشير إلى أنه لا توجد إبستمولوجيا ما مستمرة، لأن الفكر العلمي يعرف نبضات في تاريخه ومساره غير منتظرة[2].

[1]- يمنى الطريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين....، ص 393.

[2]- باتريك هيلي: صور المعرفة لفلسفة العلم المعاصرة، ترجمة: نور الدين الشيخ عبيد، مراجعة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، سنة 2008، ص 176.

وهذا الأمر جعلنا نفهم أن القطيعة النسبية أو التركيب في تاريخ الفكر العلمي المعاصر مستمرة وقابلة للمراجعة، عكس ما رأيناه في القطيعة المطلقة بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية. كذلك باشلار في ظل العلاقة الوطيدة والاتصالية بين القطيعة المطلقة والقطيعة النسبية التركيبية بين أن التحليل النفسي للفكر العلمي تحليلا جدليا، وفي هذا الصدد يقول باشلار: "أما بعد التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، فقد بات بوسعنا أن نعرف مقدار الحبور العميق الناشئ عن الاعتراف بالأخطاء الموضوعية"[1].

فهمزة وصل وترابط وتداخل بين منطق القطيعة المطلقة والقطيعة النسبية التركيبية إنما يتجلى في الجانب النفسي (السيكولوجي)، الذي يشكل دورا عظيما في لم شمل المعرفة وتقويمها وجعلها موضوعية بعد قراءات نفسانية للفكر العلمي ككل وهذا حسب ما توصلنا إليه في قراءتنا المعاصرة للفكر الباشلاري المتفتح دوما.

خاتمة:

ختاما توصلنا إلى أن فكرة جدل العلاقة بين القطيعة والتركيب في فكر غاستون باشلار جاءت على أساس منطق تصحيح النظرة الضيقة لمفهوم القطيعة الإبستمولوجية، وذلك بتوسيع مفهومها من منطق المطلقية والكلية إلى منطق النسبية والجزئية، فوجدنا أن مفهوم القطيعة الإبستمولوجية بالمعنى الباشلاري لها معان واسعة وليست ضيقة، حيث المعنى الأول يتجلى في الفصل التام بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية، أما المعنى الثاني يتجلى في الفصل النسبي أو الجزئي بين المعارف العلمية دون إقصاء معرفة علمية على أخرى، وهذا ما أدى بباشلار إلى الحديث عن منطق التركيب المعرفي، حيث بهذا المفهوم الواسع والمتفتح لمفهوم القطيعة الإبستمولوجية ربط باشلار ربطا نفسيا بين القطيعة والتركيب، وحتى وإن كان اختلافا بينهما، إلا أن هذا الاختلاف أسس لمنطق العلاقة التكاملية بينهما دون إلغاء طرف على طرف أخر.

[1]- غ. باشلار: النار في التحليل النفسي، مرجع سابق، ص 92.

*** قائمة المراجع:**

1- إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، سنة 1990.باتريك هيلي: صور المعرفة لفلسفة العلم المعاصرة، ترجمة: نور الدين الشيخ عبيد، مراجعة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، سنة 2008.

2- جان فرنسوا دوريتي: فلسفات عصرنا (تياراتها، مذاهبها، أعلامها وقضاياها)، ترجمة:

3- ساهل بوعزة: علم الهندسة - بين العلماء والفلاسفة إلى ما بعد الأزمة - دار القرويين-، الدار البيضاء، ط1، سنة 2002.

4- غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي، ترجمة: أحمد خليل أحمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، سنة 1982.

5- غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، ترجمة: عادل العوا، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، سنة 1969.

6- غاستون باشلار: فلسفة الرفض - مبحث فلسفي في العقل العلمي الجديد - ترجمة: أحمد خليل أحمد، دار الحداثة، ط1، سنة 1985.

7- يمنى الطريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين - الأصول - الحصاد - الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة 2000.